

النتاج الجديد

الخطى الاولى في علم النكبة

سبعة كتب جديدة عن القضية الفلسطينية

النوع من التفكير عرفه مؤرخو العرب الاقدمون، فكانوا يطلقون على كتبهم التاريخية اسماء جازمة حاسمة مثل : « البداية والنهاية » ، « الكامل » ، « نهاية الارب » . واسلوب غالبية الابحاث التاريخية التي ظهرت بعد النكبة يتسم بالبيان والعاطفة اكثر مما يتسم بالدقة العلمية والموضوعية ، حتى طفت نغمة تقول بان الموضوعية في درس قضية فلسطين تعتبر خيانة كبرى !

القسم الثالث هو عبارة عن الكتب السياسية ، التي حاولت ان تدرس ابعاد النكبة وآثارها وارتباطاتها العربية والدولية . لكن هذه الكتب يغلب عليها الطابع الدعائي ، وتفتقر الى الروح العلمية الرصينة التي يجب ان تسود ابحاث قضية كالقضية الفلسطينية .

هذا الوضع دفع الدكتور قسطنطين زريق - وهو احد الاوائل الذين درسوا قضية فلسطين - الى كتابة مقال ، في العدد الذي خصصته مجلة « المعرفة » السورية في آذار ١٩٦٦ عن « القضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية » ، تحت عنوان « علم النكبة » ، قال فيه : « انه لمن المعجب العجب اننا نطلب المعالجة العلمية لادنى شؤوننا امية ولا نشعر بمثل هذه الحاجة عندما تصدى لاعظم الشؤون والقضايا وابلغها اثرأ في حاضرتنا ومستقبلنا . فاذا مرض احدنا اتجه الى طبيب مختص قضى سنوات عدة في الاستعداد لمعالجة جانب من جوانب الجسم او علة من علة ... اما قضايانا الكبرى - كقضية فلسطين - فلا نعالجها بهذا الشكل ، بل لانشر انها تحتاج الى مثل هذه المعالجة ، بدليل اننا لم نهيء لها اسبابها ، ولم ننظم لها وسائلها ، ولم نبدأ بتكوين الذخيرة العلمية والاجزة

ثماني عشرة سنة مرت على النكبة ، ظهرت خلالها مئات الكتب والابحاث الفلسطينية ، وبرز فيها عشرات الكتاب والمؤلفين ، حتى اصبحت « القضية » اسهل باب المتاجرة الفكرية والادبية والسياسية واكتساب الهوية الوطنية ، ورغم هذا كله ، ما زالت القضية الفلسطينية تفتقر الى اهم عنصر من عناصر التقييم والدراسة : عنصر العلم . واذا القينا نظرة دقيقة مفصلة على نوعية الكتب الفلسطينية التي صدرت عن مختلف دور النشر في بلدان العالم العربي ، وعلى رأسها القاهرة وبيروت ودمشق ، خلال هذه الفترة من الزمن ، لرأينا انها تنقسم ثلاثة اقسام :

القسم الاول ، وهو القسم الاكبر ، ادبي بحت ، ناتج عن ردة الفعل العاطفية التي احدثتها النكبة في نفوس ابنائها . واتسم ادب النكبة بطابع البكاء والتذب والانفعال الشديد بهول الفاجعة وفقدان « ارض البرتقال » . وادباء العرب يجيدون هذا النوع من التعبير الادبي ، لانه اقرب الانواع الى طبيعتهم الغنائية . وفي داخل كل اديب عربي يكمن ذلك الشاعر الجاهلي ، الذي صار عمره اكثر من الفتي سنة ، والذي لا يزال يعشق البكاء على الاطلال . القسم الثاني يمكن ان نسميه « تاريخ القضية » ، والذين حصروا اهتمامهم في هذا الجانب كانوا ينظرون الى النكبة من زاوية أعق من زاوية مذمجة ارتكبت ، او عرض ابيح ، او طفل قتل ، او شيخ جن . ومع هذا ، كان الباحث المؤرخ لقضية فلسطين لا يقبل ان ينشر كتابا عن القضية الا اذا تناول جميع جوانبها ، وعاد الى الاصول التاريخية الاولى ، كان كل واحد يريد بكتابته ان يلغي جميع الكتب السابقة واللاحقة عن قضية فلسطين . وهذا

الفنية الضرورية لها ، شأن ما نفعل في ما هودونها
اهية بمكان بعيد ... لقد كثرت الاقوال وارتفعت
الاصوات في قضية فلسطين ، ولكن الايام تمضي
والسنين تتتابع ، وثمة صوت واحد لم يرتفع بعد ،
وان بدا فبخفوت وتقطع ودون تركيز او اثر
ملحوظ . ذلك هو صوت العالم ، العالم الذي من
شأنه ان يتناول هذه القضية ، كما يتناول اية قضية
اخرى ، بالدراسة المنظمة والتتبع المستمر والبحث
الدقيق الشامل » .

ولعل اهمية الكتب الفلسطينية التي صدرت في
فترة نصف السنة الاخيرة ، ان بعضها يتنازع بطابع
جديد ، لم تعرفه القضية من قبل ، طوال الثانية
عشر عاما التي مرت على النكبة . وهذا الطابع
الجديد له ميزتان اساسيتان :

اولاهما ميزة الاختصاص والاشمول ، والايمان
بان الدراسات التفصيلية الجزأة الدقيقة التي تتناول
جانبا من بين مئات الجوانب الاخرى ، هي اهم من
الدراسات الشاملة الواسعة الملتعبة التي تريد ان
تقول كل شيء ، ولا تقول شيئا .

وثانيتهما الروح العلمية الموضوعية ، التي تأنف من
استعمال الكلمات الديماغوجية والغوغائية الرخيصة
والمسيئة الى جوهر القضية .

ولعل دراسة هذا النوع الجديد من الكتب
العادية خلال فترة نصف السنة الاخيرة ، يوضح لنا
اكثر باننا في طريق البداية لما يسميه الدكتور
قسطنطين زريق يعلم النكبة .

اغلب هذه الكتب الجديدة صدرت عن « مركز
الابحاث » ، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية
بيروت والذي افتتح في شباط (فبراير) ١٩٦٥ ،
واصدر منذ ذلك التاريخ عددا من الكتب هي في
الواقع ابحاث علمية موضوعية تعالج جوانب حساسة
وهامة بأسلوب واضح صريح بعيد عن الغوغائية
والابتذال .

خلال الاشهر القليلة الماضية صدر في سلسلة
« ابحاث فلسطينية » (وهي احدى سلاسل ست
يصدرها المركز) كتاب للدكتور انيس صايغ بعنوان
« فلسطين والقومية العربية » ، كما صدرت في سلسلة

« حقائق وارقام » ستة كتب ونشرات ، هي :
« اسرائيل في الميدان الدولي » بقلم ليلى القاضي ،
« القضية الفلسطينية في ٣٣ مؤتمرا دوليا » بقلم
ليلى القاضي ، « المساعدات الامريكية والالمانية
الفريية لاسرائيل » بقلم اسعد عبد الرحمن ، « عرض
موجز للقضية الفلسطينية » بقلم الحكم دروزه ،
« الصحف الاسرائيلية » بقلم سولي حبيبي ، و « الحياة
السياسية في اسرائيل » بقلم رفيق مطلق .

كما صدرت ايضا عن المركز ثلاثة كتب ستتناولها
بالبحث ، في سلسلة « دراسات فلسطينية » ، هي :
« الكمبيوتر او المزارع الجماعية في اسرائيل »
بقلم عبد الوهاب كيالي ، « الجذور الارهابية لحزب
حيروت الاسرائيلي » بقلم بسام ابو غزالة ، « الماوي ،
الحزب الحاكم في اسرائيل » بقلم ابراهيم العابد .

وعن بيروت ايضا ، وعن « مؤسسة الدراسات
الفلسطينية » التي بدأت العمل في منتصف عام
١٩٦٥ ، صدر حديثا كتابان ، هما : « الكتاب
السوري للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ » و « الوثائق
الفلسطينية لعام ١٩٦٥ » .

ومن الكتب الفلسطينية التي صدرت مؤخرا
بنفس روح التخصص والعلم ، كتاب صدر في
القاهرة بعنوان « الدعاية الصهيونية ، وسائلها
واساليبها وطرق مكافحتها » لحامد محمود .

« الكمبيوتر »

كتاب « الكمبيوتر » للاستاذ عبد الوهاب كيالي
هو اول دراسة من نوعها في اللغة العربية ، تصدر
عن ام تجربة اقتصادية واجتماعية وعسكرية في
اسرائيل .

في الفصول الثلاثة الاولى ، عرض لنشأة الكمبيوتر ،
والحياة داخلها ، ثم لاهميتها العسكرية والساترانية .
يتحدث المؤلف عن العوامل الرئيسية التي ادت
الى نشأة الكمبيوتر ، وعن اطوارها المعقّدي ،
فيقول بان نشوء الكمبيوتر (المزارع الجماعية) يرتبط
بالعقيدة الصهيونية من حيث الاهداف والافكار ،
وبالمؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) من الناحيتين
التاريخية والتنظيمية . واهداف الحركة الصهيونية
ومبادؤها تقوم على السعي من اجل استعمار فلسطين
بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود . هذا

ما ظهر عليها في فترة الهجرة الاولى ، ثم في فترة الهجرة الثانية ، مع فلسفة غوردن التي تقوم على « دين العمل » . هذا كله دفع بالصهيونيين الى التمسك في الحصول على الارض لصالح « الامة اليهودية » ، مما كلف الامر . وقد حققت المستعمرات الجماعية الصهيونية اهدافها في فلسطين مع تطور الزمن ، فاصبحت ذات وجود وكيان ثابت : يتكون سكانها من المهاجرين والبنائين ، وتعمل من اجل تحقيق اهداف الصهيونية في الاستيلاء على فلسطين عن طريق غزو الارض وبناء الحصون البشرية العسكرية في النقاط الاستراتيجية وفق خطة مرسومة . اما منطلقاتها النظرية والفكرية فتستند الى العنصرية الصهيونية والتعصب والتمييز ضد الآخرين ، وعزل الذات عن طريق منع وجود غير اليهود ، في المستعمرات ، ومقاطعة اليد العربية العاملة ، واضهاد الآخرين وذلك بطرد الفلاحين العرب من اراضيهم ، وبناء دولة هي ا شبه بالمسكر منها باي شيء آخر .

ويفرد المؤلف فصلا كاملا للتحدث عن الحياة داخل الكيبوتز . والحياة في الكيبوتز صعبة ، فيها الكثير من التقشف ، كما تتصف بدرجة عالية من الجماعية . توزيع العمال في الكيبوتز يعتمد على مبدأ اعتبار رغبات الفرد من العوامل الثانوية ، والذي يحدد العمل هو حاجات وظروف الحياة اليومية . لا يوجد شيء اسمه « الحياة العائلية » ، كما ان المرأة تشكل عقدة اساسية في نظام الكيبوتز ، اذ انها سبب الاستقالات ، وهي وواء المطالبة بالملكية الفردية والحياة الخاصة . وهي غير سعيدة بدورها رغم تحررها من الاعمال البيتية .

ثم يتحدث المؤلف عن العامل الاقتصادي في الكيبوتز ، فيوجز البحث في هذه النقطة ويكتفي بعرض مريع ، موجزه ان الخصائص البارزة لاقتصاد الكيبوتز القيام بالانشاطات الصناعية الى جانب النشاط الزراعي ، وهو الجانب الرئيسي في الكيبوتز . وهنا تكمن تاحية الضعف الاساسية في الكتاب ، اذ لم يركز المؤلف على اهمية الكيبوتز من الناحية الاقتصادية بالنسبة لاسرائيل ، كما انه لم يتحدث عن مستقبل الكيبوتز بالنسبة لمستقبل اسرائيل الاقتصادي - ولم يورد ماذا استفادت

اسرائيل من نظام الكيبوتز اقتصاديا . في الفصل الثالث ، يتحدث المؤلف عن الكيبوتز كعامل عسكري استراتيجي . ويتضح ان الحاجات الاستراتيجية العسكرية وحدها تقدر الحاجة الى انشاء الكيبوتزات ومواقعها ، ولا سيما فيما يتعلق بالكيبوتزات التي تقع في جنوبي اسرائيل .

في الفصل الرابع يعالج المؤلف جانبا هاما من جوانب الكيبوتز ، وهو استغلال هذا النظام في سبيل الدعاية لاسرائيل . ففي البدء ، كانت الحركة الصهيونية تنسج الاساطير حول الكيبوتز ، وتصورها على انها « انقى اشكال الديمقراطية » ، وانها تجربة طوباوية ناجحة من حيث العدالة والمساواة . وكانت الكيبوتز الوسيلة الرئيسية لاجتذاب الشباب الصهيوني التحمس الى فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ . واليوم تشن الصهيونية حملة تركز فيها على دور الكيبوتز في تطوير الارض المقدسة ، بعد ان كانت مهمة مقفورة . واستطاعت اسرائيل ايضا التغلغل الى آسيا وافريقيا بواسطة الصفة الاشتراكية والصفة التقدمية اللتين تضيفها على الكيبوتز .

وينتقل المؤلف الى الفصل الخامس ، فيتكرك المرض جانبا وينتقل الى النقد والتقييم . فالكيبوتز ليست تجربة رائدة للعالم ، ولا هي مثال للغير يحتذى به ، بل هي علامة تميز وتفرد خاص بالشعب اليهودي . ومعظم الذين درسوا تجربة الكيبوتز اجمعوا على انها تجربة غير صالحة للتصدير والتقليد . اما بالنسبة « لاشتراكية » الكيبوتز . فينتقدها المؤلف ويقول بان الكيبوتز مؤسسة اقامتها حركة قومية عنصرية مرتبطة بالغرب وبالامبريالية العالمية . وهي اداة استثمار ووسيلة عدوان واغتصاب وقمارس التفرقة العنصرية (لا يوجد اي عضو غير يهودي في الكيبوتزات ؛ بل اكثر من ذلك ، هناك تفرقة تصيب اليهود الشرقيين) وتؤمن بالتفوق العنصري .

قيمة كتاب « الكيبوتز » الاساسية انه اول كتاب يعالج هذه التجربة الاسرائيلية المهمة ، واهميته انه فتح الباب امام ضرورة الاهتمام بتجربة الكيبوتز . لكن هذه التجربة المعقدة المتشعبة التي تعتبر من اسس وجود اسرائيل ، تحتاج الى دراسات اوسع واشمل واعمق . ويمكن اعتبار كتاب الامتاذ

كيبالي مقدمة لدراسات عديدة حول الكيبوتز قد تظهر في المستقبل .

تفاني لشومي » التي افترض فيها ان تكون اكثر تشيلا لرأيه المتطرف العنيف في العمل العسكري . وكان ذلك عام ١٩٣٧ .

بين فترة ١٩٤٣ و ١٩٤٨ ، قامت الارغون بعمليات ارهابية في فلسطين ، منها نفس فندق الملك داود الذي كان وكبرا للاستخبارات البريطانية ، ثم مجزرة دير ياسين الشهيرة ، واحتلال يافا عام ١٩٤٨ .

وبعد قيام اسرائيل ، انصهر محاربو الارغون في الجيش الاسرائيلي ، بينا الف الدنيون في عام ١٩٤٨ حزب حيروت الذي طمع منذ اليوم الاول في الوصول الى مرتبة الحزب الحاكم . ويقف حزب حيروت في اقصى اليمين من الاحزاب الامرائيلية ، وهو ينادي على الصمد الاقتصادي بنظام حر الى ابعد الحدود ، ويحارب الاشتراكية . اما على صعيد السياسة الخارجية ، فهو يرفض مبدأ الحياد ويحمل راية العداء للاتحاد السوفيتي ، وينادي جهرا بضم الاردن الى اسرائيل .

وبالاضافة الى الدراسة ، هناك ملحق هام هو تقرير حول اعمال العنف ، اصدورته وزارة المستعمرات في الحكومة البريطانية في تموز ١٩٤٦ . من مميزات الكتاب الرئيسية والمهمة ، دقة المؤلف ، التي دفعت الى مراجعة ما لا يقل عن اربعين مرجعا اجنبيا من اجل وضع كتاب لا يتجاوز السبعين صفحة من الحجم الصغير . وان كان هناك من نقص في الدراسة ، فهو ان المؤلف لم يدرس واقع الحزب اليوم بتفصيل اكثر ، كما درس ماضيه مثلاً ، ولم يدرس مستقبل الحزب وآراءه المتطرفة بالنسبة لاسرائيل .

الماباي

الكتاب الثاني عن حزب الماباي . وعلى عكس حيروت ، فان حزب الماباي كان على رأس جميع الحكومات الامرائيلية التي تشكلت منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم (١٥ حكومة) ، كما انه احتكر ام الوزارات (الخارجية والمالية والدفاع) طول هذه الفترة .

بعد ان يبحث الاستاذ العابد في التيارات العالية في الحركة الصهيونية ، وفي نشأة الماباي وتطوره

لم يسبق حتى اليوم ان صدرت باللغة العربية دراسات علمية دقيقة تتناول وضع الاحزاب الرئيسية التي توجه دفة اسرائيل . فدواة حزب معين من الاحزاب الاسرائيلية يتطلب جهدا وبحنا ودقة . وهذه العقبة لم تكن متوفرة عند الذين تابغوا القضية الفلسطينية في الماضي وكتبوا عنها ، اذ لم يروا اهمية وجدوى في دراسة حزب من الاحزاب دراسة تفصيلية عميقة . لكن النجح العلمي الذي يؤمن به مركز الابحاث يقول بضرورة درس كل جزء ، صغيرا كان ام كبيرا ، من اجزاء مجتمع ما ، لكي نفهم حقيقة هذا المجتمع ونذكر ابعاده . ومتى فهمنا حقيقة المجتمع الاسرائيلي عن طريق الدراسات التفصيلية الجزئية ولمسنا مواطن القوة والضعف فيه ، سهل علينا التصدي له ومحاربته .

تحقيقا لهذه الغاية صدرت عن مركز الابحاث دراستان حول حزبين من ام الاحزاب الاسرائيلية: حيروت والماباي .

حزب حيروت

الكتاب الاول يركز فيه المؤلف ، الاستاذ سام ابر غزاله ، على جذور حزب حيروت الارهابية ، فيتحدث عن النشأة الاولى للحزب ، وعن الاب الروحي لهذا الحزب ، وهو جابوتنسكي (يهودي روسي) ، الذي عارض سياسة وايزمن في الاعتماد على صداقة بريطانيا لتحقيق مآرب الصهيونية ، وطالب بضرورة الاسراع في الهجرة والاعتماد بشكل رئيسي على وحدات عسكرية يهودية . وكان ذلك في العشرينات . وكان جابوتنسكي يعتبر وعد بلفور قانونا ملزما للحكومة البريطانية ، لا مجرد وعد يمكن الرجوع عنه . اما ارض فلسطين ، فيعتبرها ارضا « يهودية » ، وكل من فيها من غير اليهود دخلاء لا حق لهم الا حق الاقلية فيها . وحين هب العرب للدفاع عن ارضهم الف جابوتنسكي فرقة الهاغاناه العسكرية لحماية المستعمرات من ثورة عرب فلسطين . ثم شمر جابوتنسكي بان دور الهاغاناه هو دور سلمي ، فانشق مع جماعته وكون « الارغون

وتنظيمه ، ينتقل الى ايدولوجيته حيث يقول :
 « ان الماباي حزب صهيوني اشتراكي في آن واحد .
 وهو يجمع بين القيم والمفاهيم الطبقة وبين القيم والمفاهيم
 القومية ، ويوحد بينها بشكل عضوي وثيق .
 والماباي هو اكثر الاحزاب الاسرائيلية تشددا في
 ضرورة تجميع اليهود في فلسطين ، الى درجة انه
 يؤمن بان اليهودي الذي يرفض الهجاء الى اسرائيل
 يملن ، بطريقة اخرى ، عن تخليه عن كونه
 يهوديا . وهذا الموقف هو قمة التعصب القومي .
 اشتركية الماباي احلامية نفعية . ومسألة دمج
 الاشتراكية والقومية تذكرنا بالاحزاب الفاشستية
 التي كانت ايضا تؤمن بالاشتركية وبالقومية في الوقت
 نفسه . اما فيما يتعلق بعلمانية الماباي ، فهي ايضا
 فريسة النزعة النفعية التي سيطرت على الحزب . لقد
 اضطر الماباي ان يضعي بكثير من آرائه العلمانية
 في سبيل كسب تأييد الاحزاب الدينية في الكنيسة .
 ولعل وصف هاهرماني للماباي يعكس واقع الحزب
 الايديولوجي اليوم ، اذ يقول هاهرماني : الماباي
 صخرة غريبة لحزب اشتراكي يقدم الجزر لحمار
 واسمالي لانه يمتد بان البلد يحتاج الى الاستثمارات
 بشدة ! »

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الماباي
 والعمل السياسي منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم ،
 ويقول عن مواقف الحزب بالنسبة للسياسة الخارجية :
 « يتعدد الاطوار العام لمفهوم الماباي للسياسة الخارجية
 على اساس احتياجات اسرائيل الدفاعية . ان ام
 عامل يقرر ويوجه السياسة الاسرائيلية في الخارج
 هو ، بالنسبة الى الماباي ، البحث عن السلاح
 الضروري لها لتحقيق سياستها العدوانية . ولعل
 ام منجزات الماباي ، على صعيد السياسة الخارجية ،
 بالاضافة الى قيادتها للتغلب الاسرائيلي في افريقيا ،
 هو انه استطاع ان يتخلص من عقدة اضطهاد المانيا
 لليهود ويقع معها علاقات صداقة وتعاون للكسب
 منها قدر الامكان ! » ثم يفرد المؤلف فصلا كاملا
 لانشقاق الماباي الذي وقع في اواخر عام ١٩٦٤
 واهى الى انسحاب بن غوريون وجماعته بسبب قضية
 لافون ، وتأليف حزب رافي المتطرف الذي يدعو
 الى غارات انتقامية شديدة على الدول العربية .
 بالاضافة الى الدرامة الرصينة الدقيقة عن

الماباي ، فان الكتاب يحتوي على جداول هامة ،
 منها ما يتعلق بنتائج انتخابات الكنيسة (١٩٤٩-
 ١٩٦٥) وتوزيع الحقائق الوزارية ، ثم عمر
 الحكومات الاسرائيلية واسباب استقالتها .

« الدعاية الصهيونية »

تكمن امية كتاب « الدعاية الصهيونية » لحامد
 محمود في تقسيمه المفصل وتبعه الدقيق لاصفر
 مكونات الدعاية الصهيونية وطرق مكافحتها .
 في حديثه عن اساليب ووسائل الدعاية الصهيونية
 في الخارج ، يقول المؤلف ان الاساليب الرئيسية
 المتبعة تقوم على : (١) مخاطبة مراكز القوة في
 المجتمع الذي تتوجه نحوه ، وبذل الجهود المتواصلة
 للتأثير عليها وكسبها الى صفها . (٢) عدم فتح موضوع
 قضية فلسطين الا للرد على ما يمكن ان تطرحه الدعاية
 العربية . (٣) مخاطبة الرأي العام من خلال مداخل او
 مفاتيح معينة تسهل لهم الاستجابة لدعاياتهم . (٤) محاولة
 اظهار التجربة الاسرائيلية على انها مثيل لتجارب
 عديدة اخرى وعرض هذه التجربة على دول اخرى .
 (٥) اثارة الحملات الدعائية وتكرارها لتحقيق
 هدف معين ، وتحويل الاذهان عن سلوك يدين
 اسرائيل (اثرة موضوع الاضطهاد العنصري
 لليهود مثلا) .

ويقول المؤلف ان الاتحاد العمالي العام في اسرائيل
 هو من ام الوسائل والاجهزة التي تستخدمها اسرائيل
 في بث دعاياتها ، سواء في الداخل او في الخارج ،
 والتغلب عن طريقه الى الحركة العمالية الدولية
 عامة ، والحركة العمالية الامريكية بصورة خاصة .
 ويقترح المؤلف في الباب الثالث من الكتاب ،
 المخصص لوسائل مكافعة الدعاية الصهيونية ، ان
 تستند الدعاية العربية في الخارج الى تنظيمات
 وتشكيلات متماكة امها : جمعيات الصداقة
 العربية في الخارج ، والجاليات العربية المغتربة ،
 والطلبة العرب الذين يدرسون في الخارج ، والمؤتمرات
 العمالية الدولية .

ويعترف المؤلف بوجود مشكلات عديدة تواجه
 الدعاية العربية في الخارج ، ثم ينهي الكتاب
 باقتراح لتأليف جهاز اعلام عربي يصصح عيوب
 مشروع جهاز الاعلام العربي الذي اقترح تأليفه

سنة ١٩٥٩ .

الدكتور منذر عنتاوي ، « ان جميع الوثائق المدونة قاصرة على ماسد منها في المشرق العربي . »
واذا كانت الغاية الاساسية في نشر هذه الوثائق هي « في ان توضع تحت تصرف الباحث العربي جميع المستندات » ، فانا لا نجد في الكتاب التصريحات والخطب الصادرة عن ربيين اسرائيليين ، والمرتبطة مباشرة بالقضية الفلسطينية . وعسى ان يلا هذا النقص في وثائق عام ١٩٦٦ .

كما ان هناك نقسا آخر في كتاب « الوثائق » ، وهو خلوه من الفهارس (غير فهرس المحتويات) ، فهارس الاسماء والبلدان والمنظمات والمواضيع الوارد ذكرها في الكتاب . وهذا النوع من الفهارس اصبح اليوم من ضروريات اي كتاب علمي شامل .

اما « اليوميات الفلسطينية » فهي اكمل واشمل وادق . وهي تضم وصفا موجزا لما يحصل بشأن القضية ، او ما يقال عنها ، يوما بعد يوم ؛ وتضم بالإضافة الى هذا انباء واقوالا قد لا تظهر صلتها بالقضية واضحة او اكيدة او مباشرة الاقيا بعد . ومصادر « اليوميات » عبارة عن مقتطفات من نيف وستين صحيفة او مجلة (تصدر عن سبع بلدان عربية وامريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية والصين الشعبية وروسيا واسرائيل) ومن النشرات الصادرة عن عدد من وكالات الانباء . وهكذا تكون مصادر « اليوميات » اكمل واوسع من مصادر « الوثائق » .

« واليوميات » تضم ايضا ثلاثة فهارس مسببة تبلغ بمجموع صفحاتها مائة صفحة (من اصل ١٣٤ صفحة) . وهذه الفهارس اهمية كبرى في مساعدة الباحث وتسجيل اموره .

اهية الكتب السبعة التي قدما ضرورة عنها ، هي انها تشكل الخطوة الاولى في طريق علم النكبة ، هذه الطريق التي انتظرنا ثمانية عشر عاما قبل ان ندرك انها ضرورية للعودة .

عبد الكريم ابو النصر

البزة الرئيسية للكتاب ان مؤلفه غير معقد ابداء من جراء قوة الدعاية الصهيونية في العالم ، بل هو يحلها ويدرسها بالتفصيل وبجراحة تامة دون التقليل من اهميتها . ويمكن اعتباره من اهم المراجع العربية الحديثة في قضية الدعاية الصهيونية .

كتب وثائقية

وننتقل الآن الى نوع آخر من الكتب الفلسطينية التي صدرت مؤخرا واتسمت بنفس طابع المنهجية العلمية التي تحدثنا عنها . وهذه الكتب « وثائقية » ، من نوع المراجع الشاملة الواسعة . صدر منها ثلاثة كتب : كتابان عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، و « الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ » و « الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٦٥ » ، وكتاب عن مركز الابحاث هو عبارة عن الجزء الاول من « اليوميات الفلسطينية » ويضم نصف سنة من هذه اليوميات (من ١ - ١ - ١٩٦٥ الى ٣٠ - ٦ - ١٩٦٥) .

قسم « الكتاب السنوي » الى سبعة اقسام ، هي : قضية فلسطين في المجال العربي ، الصهيونية العالمية ، الوضع السياسي لاسرائيل ، علاقات اسرائيل بدول الشرق والغرب ، قضية فلسطين في آسيا وافريقيا ، فلسطين في الامم المتحدة ، الاقتصاد الاسرائيلي بجميع اوجهه .

والكتاب فيه حشد كبير من المعلومات والمصادر والارقام ، ولعل القسم المتعلق بالاقتصاد الاسرائيلي من اهم اقسام الكتاب (يتضمن ٢٧٠ صفحة من اصل ٥٢٠) . وهو يمالج كل اوجه ونشاطات وطاقات هذا الاقتصاد ، كما يتضمن ٦٢ جدولا اساسيا مرقما .

الا ان هنالك ثلاثة مواضيع هامة ، هي : اليهودية العالمية وحوادث خطوط الهدنة وشؤون اللاجئين ، كان ينبغي اعطاؤها دورا اكبر في الكتاب . كما ان الكتاب يفتقر الى فهرس مفصل (غير جدول المحتويات) يساعد الباحث على تسهيل مهمته .

اما كتاب « الوثائق الفلسطينية » فيتضمن ٢٣١ وثيقة . الا ان النقص الاساسي فيه هو ، باعتراف محرره

« الافغاني وعبد » ، بقلم ايلي قضيوري . لندن ، فرانك كاس ، ١٩٦٦
 « الاصلاح الاسلامي » ، بقلم ملكولم كير . مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٦٦
 « ثلاثة مصلحين » ، بقلم خلدون ماطع الحصري . بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٦

ادوارد بروان والشيخ محمد رشيد رضا - بالتحزب
 لهذين الرجلين والاعتراف باهمية مساهمتهما في عملية
 ايقاظ المسلمين وتنبيههم الى خطورة السيطرة الاوروبية.
 ولكن الغريب ان المؤلف يعرض نفسه لذات الاتهام ،
 عندما يبدأ برفض بعض المصادر المعروفة « لتحزبها »
 او لعدم موافقتها لآرائه هو - ومن ثم بالاعتقاد عليها
 اذا ما كانت موافقة لاستنتاجاته (كما يفعل في ما
 كتبه الشيخ محمد رضا او الشيخ المغربي) . والاستاذ
 قضيوري لا يكتفي بان يتهم الافغاني وعبد بالكذب
 والتلفيق . وانما هو يعمم هذا الاتهام على سائر زعماء
 هذه الحركة . فيذكر مثلا ان الكواكي لم يكن
 معروفا في بلده حلب ، ويقرر على هذا الاساس
 عدم اهمية مساهمة الكواكي : اذ ان الرجل غير المعروف
 في بلده لا يستطيع ان يؤثر على افكار وكتابات
 الآخرين في خارجها . مع العلم بان الكواكي (كما
 يشير الى ذلك الاستاذ الحصري في كتابه الحالي)
 كان قد هرب من سوريا ومن الاضطهاد العثماني الى
 مركز الحركة الفكرية القاهرة ، حيث نشر جميع
 مؤلفاته . فلا غرابة اذا تنكر اهل حلب ، وهم لا
 يزالون تحت الحكم العثماني ، للكواكي وامثاله .
 المهم في هذا الكتاب ليس الكواكي ، وانما
 معالجة المؤلف لحياة الافغاني وعبد وكتاباتهما واعمالهما .
 فهو يبدأ بالقول بان مجرد دراسة ما كتبه الافغاني
 وعبد غير كافٍ ولذا يجب دراسة اعمالهما لتفهم
 شخصيتهما . ويزيد بان الاعمال التي قاما بها لم تكن
 متعلقة بما كتبا او كتب عنهما . وبهذه الطريقة يتوصل
 المؤلف ، بالاعتقاد على بعض الوثائق الرسمية التي
 كتبت عنها ، الى ان الافغاني كان يمثل المصالح
 الروسية في افغانستان (او بالاحرى كان عميلاروسيا) ،
 ثم الى انه عند اصداره مجلة « العروة الوثقى » بمساعدة
 الشيخ محمد عبد في باريس كان يعمل لمصالح

ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين من ثلاثة اقطار في
 موضوع واحد . ولكن الموضوع هو وجه الشبه
 الوحيد فيما بينها . والموضوع هو حركة الاصلاح
 الديني في الاسلام ، التي جاءت في اواخر القرن التاسع
 عشر والتي قادها السيد جمال الدين الافغاني والشيخ
 محمد عبد . ان اكثر الباحثين في هذا الموضوع ،
 عربا كانوا ام اجانب ، يعتبرون هذه الحركة بداية
 لنهضة ثقافية وسياسية جديدة في العالم الاسلامي
 بصورة عامة والعالم العربي بصورة خاصة . وبما لا
 شك فيه ان الوعي القومي والسياسي عند العرب
 قد تأثر تأثيرا مباشرا بهذه الحركة ، كما وان رجالها ،
 امثال الافغاني وعبد واديب اسحق ورشيد رضا
 وعبد الله النديم والكواكي ، يمثلون الرعيل الاول
 من رجال القومية العربية كحركة سياسية ، بالرغم من
 عدم وضوح هذه الفكرة عندهم وذلك بسبب ايمانهم
 العميق بمبدأ الامة الاسلامية كوحدة واحدة غير
 قابلة للتفكك والانفصال .

ولكن الاستاذ ايلي قضيوري ، في كتابه « الافغاني
 وعبد » ، يبدأ بنقد كل ما هو متعارف عليه عند
 الباحثين والمؤرخين ، ليقول باننا اذا وضعنا جميع
 كتابات الافغاني وعبد وجميع المؤلفات التي كتبها
 عنها معاصروها او تلامذتها تحت الميكروسكوب ،
 وجدنا ان حقيقة هاتين الشخصيتين في هذه الكتب
 تعاكس ما كتبه هماغن نفسيهما . لكن المؤسف ان
 المنظار الذي يلجأ اليه هذا الاستاذ الجامعي ليس منظار
 من يعتمد طريقة البحث العلمي النزهي ، وانما هو منظار
 الاستاذ قضيوري الخاص ، الذي وضع هو اصوله
 وقواعده وراح يحكم على زعماء الفكر الحديث في
 العالم العربي حسب هذه القواعد والاصول التي
 استنها وكما طاب له . فان المؤلف يتهم سائر الذين
 كتبوا عن الافغاني او عبد - بمن فيهم الاستاذ

بدراسة النتائج الدينية والقانوني الذي جاء كنتيجة مباشرة لكتابات وافكار الشيخ محمد عبده . وهذا هو الموضوع الذي يكتب فيه الاستاذ ملكوم كير في كتابه « الاصلاح الاسلامي » . بعد ان يناقش المؤلف القواعد التي اعتمد عليها رجال الفقه والتشريع في الاسلام ، يشير الى التنقض الذي حصل بين المثالية في التشريع وحقيقة العالم الاسلامي او الاسس التي كانت تقوم عليها السلطة الحكومية ، وخصوصا محاولات الامام الغزالي وابن جماعة لقبول اية سلطة مهما كانت ظالمة ، وذلك للحفاظ على وحدة واستقلال الامة الاسلامية . ثم يشير الى المحاولات التي قام بها الشيخ محمد عبده لنذب كل ما سماه بالبدع او الشوائب التي تعرضها الدين الاسلامي في القرون الوسطى بعد تسلط المغول والاتراك واستيلائهما على الحكم . فان الشيخ عبده كان يود الرجوع بالاسلام - وليس بالامة الاسلامية - الى سنه الاولى ، اي الى العهد الذي كان فيه الدين الاسلامي نقيا من كل الشوائب التي دخلت عليه في عهده المتأخرة . ولذا سميت هذه الحركة بالسلفية ، اي الرجوع الى السلف الصالح . ان غرض الشيخ محمد عبده من هذا كله هو دعواه الى تبني بعض جوانب الحضارة الاوربية التي كانت ستؤدي الى تقوية الامة الاسلامية حتى يمكنها ان تواجه الغرب ومحاولاته للتسلط عليها . وقد حاول الشيخ محمد عبده تبين ان الاسلام لا يعارض اسس العلم والمعرفة الحديثة وانه يوافق عليها كل الموافقة . وقد ادى اهتمامه بالتعليم وبتكوين قواعد اخلاقية جديدة لمجتمع جديد ، الى التفريق بين الاسس المنزلة في الاسلام والتي لا يمكن تغييرها وبين القواعد التي يمكن ان تغير بقصد الضرورة والمصلحة العامة . ولكن عدم وضوح هذه القاعدة ادى الى ظهور مدرستين مختلفتين كل الاختلاف في تفسير مبادئ الشيخ محمد عبده وفي التشريع العمومي . المدرسة الاولى ، التي قادها الشيخ محمد رشيد رضا ، التزمت بالقواعد غير القابلة للتغيير كأساس لها ، وهذه هي المدرسة التي يبحث فيها المؤلف في كتابه هذا . (وكلفت المدرسة الثانية التي اتخذت قواعد التغيير كضرورة اجتماعية ، تحت اشراف لطفي السيد وقاسم امين) . فان الشيخ رشيد رضا حاول تفسير

الفرنسيين (اي كان عميلا فرنسيا) ، ثم الى انه بعد قيام حركة المهدي في السودان عرض خدماته على الحكومة الانكليزية (اي انه كان يود ان يكون عميلا للانكليز) ! ولا يكتفي الاستاذ بقصوري بهذه القاعة ، بل يضيف اليها بان هناك احتمالا كبيرا بان الافغاني كان قد اشتغل كعميل للملك الافغان ، ثم لشاه ايران ، ثم للسultan عبدالعزيز ، ثم لرياض باشا في مصر ، ثم للسultan عبد الحميد ! ويكتب المؤلف عن علاقة الشيخ محمد عبده بالافغاني ، فيقول بانها كانت علاقة غريبة ومشبوهة . ويتهم الشيخ محمد عبده بالتبعية العمياء في بداية معرفته بالسيد الافغاني ، ثم بالثورة ونكران كل تعاليم استاذة بمفضل الثورة العربية في مصر . بل ، والانكر من هذا كله ، هو اتهام المؤلف للافغاني وعبده بالاحاد : وذلك لثورتها على الارثوذكسية العثمانية في الدين وطى جمود وتفسخ علماء الدين تحت الحكم العثماني . والجدير بالذكر ان هذا الاتهام كان قد وجهه للافغاني من قبل شيخ الاسلام العثماني وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر عندما كانت كل فكرة جديدة تعتبر بدعة يجب محاربتها . والغريب ان يعتبر المؤلف فكرة التجديد ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، الاحادا . فان سائر المجددين ، في اي دين كان ، منذ المصلح الديني لوثر في اوربا حتى يومنا هذا ، معرضون لتهمة الاحاد - وخصوصا في الاسلام منذ ايام الشيعة والخوارج والمعتزلة . بل ، واهم من كل هذا ، ان اهمية الافغاني وعبده بالنسبة للفكر الديني والسياسي الحديث ليست في الاعمال الشخصية التي قاما بها (كما يزعم المؤلف) وانما في كتاباتهما ومحاربتهما للجمود الفكري الذي كان مهيمنا على الفكر العربي . وان اهمية الافغاني وعبده يجب ان ينظر اليها لا بواسطة منظار الاستاذ قصوري (الذي لا بد من التساؤل عن هدفه) ، وانما في مساهمتها في الحركة الفكرية وتأثيرهما على النهضة الثقافية والوعي السياسي الذي كانا هما اول رواه .

ولا يمكن وصف مساهمة الشيخ محمد عبده في تنوير المسلمين بتفسيراته الحديثة للقرآن والسنة بانها مجرد « فقه سطحي » كما يسميها المؤلف - ولكن

ولذا فمن السهل ان يعتبر من رواد القومية العربية الاول ، ولكن لا يمكن اعتبار الطهطاوي او التونسي كذلك : وذلك لسيطرة فكرة المصرية ، او مصر للمصريين ، على الاول ، وفكرة الامة الاسلامية ، اي الجامعة الاسلامية ، على الثاني .

هناك ملاحظة واحدة : تختص بإشارة المؤلف لما كتبه السيدة سلفي حاتم عن الكواكي وترجمته لبعض المؤلفات الاوربية في السياسة او تأثره بها . فقد كان بودي ان يرد الاستاذ الحصري على هذه الاشارة بأكثر مما فعل ويضد افتراضات الكاتبة (زوجة ايلي قصوري الذي تحدثنا عن كتابه قبل قليل) في هذا الموضوع ، وخصوصا فيما يتعلق بكتاب الفيري عن الاستبداد . وملاحظة اخرى : ان فكرة الخلافة العربية كانت منتشرة عند العرب قبل وصول بلنط الى هذا الجزء من العالم ، وخصوصا بعد احتلال ابراهيم باشا لسوريا ؛ ولذا فان فكرة الخلافة العربية لم تكن بالدعوة الجديدة عند العرب ، ولم يخلق بلنط هذه الفكرة : فمنذ مجيئه الى العالم العربي وجد ان اكثر المجالس تتحدث بهذه الفكرة ، وهو في كتابه « مستقبل الاسلام » لم يسجل اكثر مما كان يسمعه من الناس . ويجب القول ايضا ان مجرد الاشارة الى مقالات الكواكي في جريدة « المؤيد » وانسجامها مع كتاب « طبائع الاستبداد » غير كاف . واخيرا فان هذا الكتاب كان يمكن ان يكتب بلغة اجزل وامتن من اللغة التي كتب بها ، فان مثل هذه الكتب لا تخدم مصلحة القومية العربية ولا القضايا العربية عند القارئ الاجنبي .

محمد البسام

الغموض عند عبده ، وذلك بوضع قواعد اساسية وسياسية ومثابرة للمنظمات السياسية الاوربية ومنبثقة عن الدين الحنيف . فقد اتخذ مثلا مبدأ الاجماع في الاسلام كاساس للديمقراطية ، وقاعدة انتخاب الحاكم من قبل اهل المقعد والحل كمبدأ للحكم البرلماني . ولكن المؤلف يشير الى ان الشيخ رشيد رضا لم ينجح في وضع هذه التفسيرات على اسس بينة ومتينة ، كما انه يشير الى فشله في التفريق بين السلطة الروحية والدنيوية للحاكم المسلم ، والى معارضته الشديدة لكتاب علي عبد الرزاق « الاسلام واصول الحكم » الذي دعا فيه الى الفصل بين السلطتين . ويناقش المؤلف قواعد التشريع القانوني عند الشيخ رشيد رضا الذي وضعه على مبدأ المصلحة العامة ، ويشير الى التناقض بين الاحكام المنزلة في القرآن وبين هذه القاعدة . ويقول ان الشيخ محمد رشيد رضا اخذ يعتمد على التقليد اكثر من التجديد بعد رواج افكار المشرعين المحدثين امثال عبد الرزاق واحمد صفوت .

وبالرغم من كل الغموض الذي جعل افكار الشيخ محمد عبده قابلة لتفسيرات مختلفة ومتضاربة ، فان هذا الكتاب خير رد على آراء الاستاذ قصوري في المساهمة التي قدمها الشيخ محمد عبده . فان الاستاذ كبير يبرهن ان محاولات الشيخ الامام في التجديد لم تذهب سدى ، وان تأثيره على الفكر الحديث وعلى التشريع الجديد ما زال ملحوظا . واما كتاب الاستاذ خلدون الحصري « ثلاثة مصلحين » فانه ليس اكثر من محاولة للبرهنة على ان حركة القومية العربية كحركة سياسية ، وليس حركة الاصلاح الديني كما هو متفق عليه ، كانت حركة عامة شملت العالم العربي بآرائه المختلفة : فهو يأخذ موضوعا لبحثه شخصية من مصر (الطهطاوي) وقانية من المغرب (خير الدين التونسي) وثالثة من سوريا (الشيخ عبد الرحمن الكواكي) . وهذا الكتاب مجرد عرض لآراء هذه الشخصيات الثلاث التي سجلوها في مؤلفاتهم الخاصة ، وخصوصا فيما يتعلق بالطهطاوي والتونسي . اما فيما يخص الكواكي فان معالجة الاستاذ الحصري لآرائه هي اهم ما في كتابه ، لان الكواكي كان قد عبر عن تلك الآراء كعربي -

« الموارد الاقتصادية في الوطن العربي »

بقلم محمد صبحي عبد الحكيم ويوسف خليل يوسف وحليم ابراهيم جريس
 واجلال السباعي . القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٦

بين علم الاقتصاد والجغرافيا الطبيعية ، يجد احياا صعوبة فيها ينتقيه وما يتركه في عملياته الانتقائية هذه . فالكتاب الذي بين ايدينا ، مثلا ، لم يعالج موضوع السكان ، وتراكيبهم ، وتوزيعهم ، وانواع المهارات بينهم ، ومستويات معيشتهم ، الخ ، رغم ان الصورة لا تكتمل بدون هذا البحث . وما ذلك فقط لان الانسان هو الغاية والوسيلة في الجهد الاقتصادي ، بل وايضا لان تفاعل الموارد والسكان هو الاساس في اي صورة اقتصادية ، وهو بالنسبة للوطن العربي من اهم المفارقات التي تشكل دعما قويا لدعوة « التكامل » و « التوحيد » ، التي تصبح حينئذ في المصطلح الاقتصادي دعوة « ترشيد » . هنالك اشارات عابرة الى بعض النواحي السكانية في مجال ابحاث انواع الانتاج المختلفة ، غير اننا نعتقد ان معالجتها في فصل واحد ربما كانت افيد في اكمال الصورة وابرار المعاني التي قصدتها المؤلفون الاجلاء .

كذلك ، فمع اقرارنا بان النهج المتبع في مثل هذا البحث لا يتناول توزيع مورد اقتصادي هام هو « رأس المال » ، فان ظروف الوطن العربي الخاصة ربما كانت تتطلب بحثا في هذا الموضوع ، اذ ان التوزيع الحالي لرؤوس الاموال في الوطن العربي من اوضح مظاهر « التشويه » في البنيان العربي الاقتصادي الآن .

غير ان لهذا النهج من البحث مشكلة اخرى غير المشكلة المتقدمة ، وهي ان الموارد تتفاعل تفاعلا حركيا (ديناميا) مع العلم . فالبحث الذي يبدأ من نقطة الموارد يبدو غالبا وكأنه بحث راكدي (ستاتيكي) . ان امكانيات تطوير الاقتصادات العربية من خلال الثورات التكنولوجية ربما تفوق امكانيات التطوير من خلال مجرد النموذج الاقتصادي المعبود : نموذج الاستثمارات الروتينية . من هنا ، مثلا ، امكانية قفزة صناعية ثورية تنشأ في البلاد

من اول الاهداف التي تنادي بها القومية العربية ، تحقيق ما اصطلح عليه باسم « الوحدة العربية » . غير ان اي باحث عربي جدي يشعر بالدهشة عندما يجد هذا الهدف العزيز هدفا عاما غير واضح المعالم والحدود ، ويقر ما جاء في مقدمة هذا الكتاب من ان الوقت قد حان لكي « يطرق الباحثون النواحي المادية للوحدة ، وذلك ان اذهان العرب في كل مكان قد تهيأت للضرورة السياسية للوحدة ، اما الضرورة الاقتصادية لها ، فما زال العرب بحاجة الى ادراكها » .

من هنا فان قيمة هذا الكتاب تزيد عن كونه مجرد « جغرافيا اقتصادية » للبلاد العربية ، وضعت على اساس اقليمي . اذ انه واع تماما للكثير من المفارقات الاقتصادية التي يعاني منها الوطن العربي بجموعه ، « فالاقتصاد العربي يسير نحو سيرا عشوائيا ، بل لقد اتجه في بعض الحالات نحو التنافس ولم يوجه نحو التكامل ، فسار الانتاج في خطوط اقرب الى التوازي منها الى الترابط . فضلا عن ذلك فليس بين الدول العربية دولة واحدة تملك بمفردها من الموارد والامكانيات وتكامل عناصر الانتاج بحدودها الرامنة ، ما يمكنها من ان تحقق لسكانها رخاء حقيقيا مستمرا ، او يحمل منها قوة اقتصادية كبيرة على الصعيد العالمي » .

وقد قسم الكتاب الى خمسة ابواب : اولها الانتاج الزراعي في الوطن العربي ، وثانيها الموارد النباتية والحيوانية والمائية ، وثالثها موارد الثروة المعدنية ، ورابعها الصناعة في الوطن العربي ، واخيرا التكامل في الوطن العربي .

ولا شك ان السادة المؤلفين الاجلاء ، على ضخامة الجهد الذي بذلوه في هذا الكتاب (٥٣٨ صفحة) ، واجهوا عددا من المشاكل الرئيسية الانتقائية ، التي يواجهها اي بحث في الجغرافيا الاقتصادية . اذ ان هذا الحقل من حقول المعرفة ، نظرا لتوسطه

العربية - اغنى بلاد العالم بالترول والغاز الطبيعي -
حول جلة الصناعات البترو - كياوية المنوعة التي
تنتج اشياء تتراوح بين المنتجات الصلنة المرفنة
الشبيهة الصفات بالفولاذ (والقادرة في المستقبل على
ان تحمل مكانه) وصناعات الحيوط والملائن بانواعها
(ومنها ما يقوم مقام الجلود ، ومنها ما يقوم مقام
الاخشاب) والزيوت والمبيدات والدهانات . وان
معالجة الصناعات الكيماوية في الكتاب (ص ٤٧٢ -
٤٩٢) لا تفي ، فيما نعتقد ، بابرار هذا الافق
الذي يلوح للعرب ، والذي لم يتبينوا اهميته بعد .
وبالاضافة الى هذه العناصر ، فاننا نلاحظ - في
جانب القومات الطبيعية - فراغا ، اذ نعتقد انه
ربما كان من الافضل التقديم للفصول الزراعية والنباتية
والحيوانية ببحث عام في مصادر المياه وكمياتها ،
لان هذه المصادر المائية تشكل بالنسبة للوضع
التقنولوجي الراهن ، حدا من اهم حدود الامكان
الزراعي ، كما ان تنميتها من اهم مجالات تنمية

الافاق الزراعية - وذلك كله ريثما تحدث ثورة
تقنولوجية اما في مجال تحلية مياه البحر ، او في
مجال التحكم بالرياح والامطار او كليهما .
غير ان هذه النقاط هي بما يمكن ان تختلف فيه
الآراء حول ما يجب ان ينتقى وما يمكن اهماله .
فيما خص المسائل التي انتقاها المؤلفون وبحشوها ،
فاننا نفلس جدية في الدراسة والبحث ، واستقصاء
واسع ، والمما كبيرا بالحقائق ، الهام منها والتفصيلي ،
وجهدا بذل بعناية وبصبر .

ولا شك ان السادة المؤلفين قد استحقوا ثناء
القارئ العربي الخالص ، في ان وضعوا بين يديه
هذه المجموعة الواسعة ، المحصنة ، من المعلومات
الاساسية عن وطنه . ولسنا نبالغ اذا قلنا ان هذا
الكتاب - بروحه القومية ، وبروحه العلمية ،
وبمعلوماته - من اجل ما اخرجت المطابع العربية
للقارئ العربي .

برهان الدجاني

نِزار قباني وأهل الكهف

« الرسم بالكلمات » ، بقلم نزار قباني . منشورات نزار قباني ، بيروت ، ١٩٦٦

من الصفحة الاولى ، لا من نشوة عابرة مفروغ
منها ، بل دهشة من ان هذا الشاعر الذي اختص
بشعر المرأة اختصاص الدكتور باستور بمرض السل ،
قد ظهرت عليه بوادر المرض والاعياء حتى في
القصائد التي رشحتها عناوينها للنجاة والمقاومة .
منذ القصيدة الاولى حتى الاخيرة يشعر القارئ
بانه حتى نزار قباني يمكن ان يتعلم على منابر ،
ويتعثر ويرتبك في مسالكه . من السطر الاول حتى
السطر الاخير يشعر القارئ بان وراء كل قصيدة
بؤبؤا جاحظا في الادراج القديمة والمفكرات القديمة
بحثا عن كلمة واحدة جديدة . فالقلم ان لم يكن
ثمرة كرز فهو ثمرة خوخ او تفاح . والشعر اما
« سنابل قمح قبل الحصاد » او « سنابل قمح بعد
الحصاد » . والمرأة ، المرأة دائما وابدا مستفزة
امام خزانتها . والحبيب دائما وابدا يعود حبيسته
لينسى عندها « معطفه ولفحته » - حتى ولو كانت
الزيارة في منتصف آب او تموز .

بفرشة خبيرة كل شجرة فيها من قبل ، يرسم لنا
نزار قباني في مجموعته الجديدة ما يقارب الاربعين
لوحة من الادب الكشميري ، لو حوكت بمنطق
الحرس الاحمر او مجتمع الكفاية والعدل ، مثلا ،
لكان جزاء كاتبها في ادنى الاحتمالات عصابة
بيضاء على عينيته في ساحة المطبعة التي انتجتها .
وفيما عدا ذلك فان شاعريته تهب كاسماك القرش في
وجه اي مغامر يتخطى مياهه الاقليمية ، ان كان
بدافع النزعة او بدافع التحدي . ومع ذلك فالغامرة ،
عدا عن كونها ضرورية ضرورة نزار للشعر
العربي ، فهي تكتسب اهمية خاصة باعتبار ان
« الرسم بالكلمات » ليست المجموعة الاولى ، او
الثانية ، او الثالثة للشاعر ، ولكنها الاخيرة حتى
الآن من سلسلة ينتظرها القراء والمطربون والملمنون
انتظار المن والسوى .

وا ، بالطبع ، لن اتناولها كمطرب او
ملحن . بل كقارئ اغمض عينيته وهز رأسه طويلا

قصيدة واحدة تشد في مضمونها عن كل هذا
المراء الاخلاقي ، وترفع الشاعر من مأزق الالفاظ
الطنانة والفضول التاريخي لتقفه في مأزق ادعي
وامر . والقصيدة هي « غن قصائدي » . فنزار
عاتب على وطنه لانه يضطهده ، ناظم على شعبه لانه
لم يرتفع الى مستوى شعره . ولذلك فهو يطالب ،
وبالحاح ، بشمن قصائده . وهو لا يطالب الموزع او
الناشر الفاحشي الثراء ، كما يتبادر الى الذهن ، بل
يطالب وطنه بالذات مقابل ما اعطاه من قلبه وما
نفحه من روحه ودمه :

« اعطيت هذا الشرق من قصائدي

علقت في سماءه النجوم والجواهر

ملأت يا حبيبي بحبه الدفاتر

ورغم ما كتبته

ورغم ما نشرته

ترفضني المدينة الكئيبة

تلك التي سماؤها لا تعرف المطر

وخبزها اليومي حقد وضجر

ترفضني المدينة الرهيبة

لاني بالشعر يا حبيبة

غيرت تاريخ القمر »

بما لا جدال فيه ان القراء يقفون صفا واحدا
مع الشاعر في محنته ، ولن يهدأ لهم بال ما لم
يقفوا على الاسباب الكامنة وراء رفض المدينة
الرهيبة ذات العلاقة لشاعرها الكبير المضطهد. وعلى
افتراض ان جميع الترتيبات اللازمة لمعرفة رأيها
قد اتخذت ، وتنادى اهلها من بيوتهم وحقولهم
ومساجدهم ومستشفياتهم ، واجتمعوا في ساحة
المدينة يتقدمهم وجهاؤها واعيانها ليقروا موقفهم
النهائي من شاعر غير لهم وجه القمر وهم لا يعلمون ،
فلا بد والحالة هذه من ان يطالبوا بالاطلاع على
موجز عن حياة هذا الشاعر ونضاله من اجلهم .
ومن حسن الحظ ان الشاعر يوفر لنا عناء البحث
والتنقيب عما يريدون . فهو يقول بكل صراحة :

« لا تطلي مني حساب حياتي

ان الحديث يطول يا مولاتي

لم يبقَ نهد ابيض او اسود
الا زرعت بارضه راياتي

لم تبقَ زاوية يحسب جميلة

الا ومرت فوقه عرباتي

فصلت من جسم النساء عبادة

وبنيت اهراما من الحلمات »

فهل يريد الشاعر ، مقابل هذا التاريخ المشرق ،
ان ينصبوا له تمثالا على ذرى ميسلون ؟ او ان يدربوا
قصائده في برامج التنمية ؟ نعم واكثر ، سوف
تجيب تلك الميليشيا الغرامية التي دربها نزار منذ
الاستقلال حتى الآن بالمشط وزجاجة المطر ، لان
المدينة حسب تقديرهم لم تفهم شعر الشاعر وابماده
الفكرية :

« فالتشر لا يقرأ في بلادنا لذاته

لجرسه لعمقه

او محتوى لفظاته »

واذا ما سألت امرأة جلييلة من الحضور ، وهي
تداعب شعر حفيدتها : مثلا ، مثلا يا بني ؟ فان
تلك الميليشيا الغرامية ستجيبها على الفور : مثلا ،
هذه القصيدة :

« ضاحمي من شئت ان تضاجمي

ومارسي الحب على ارضة الشوارع

نامي مع الحوزي واللوطي

والاسكاف والمزارع

نامي مع الملوك واللصوص

نامي مع النساء لا فرق

مع الريح والزوابع

فلن تكوني امرأة

الا معي

الا معي »

اثبات لا تجوز معها الشكوى من عدم
(او سوء ، او استحالة) فهم الجماهير لما يكتبان :
احسان عبد القدوس ونزار قباني . ما من شاعر ،
حيا كان او ميتا ، احبه وطنه ويحبه مجتمعه كنزار
قباني . انه الشاعر الوحيد الذي يقرؤونه في
القرف والصالونات والشرقات . في بطون الاراتك
وعلى ظهور البيخوت . او بالاحرى ، في كل مكان -
ما عدا « بعض الامكنة القذرة والمناسبات
البغيضة » . في السجون ، مثلا ، لا يقرؤون
نزار قباني . في ايام الرعب واليأس والجنون
الوطني لا يقرؤون نزار قباني . بل يكظمون

والنفي ، والحلمة التي يقوم بها نزار قباني عبر قصائده الجديدة لكسب الثقة بشعره والولاء لمواضيعه ، لن تفلح ابدا بعد ان سقطت كل اسلحته خارج اغمارهم ضجراً وخيبة . ان خمس عشرة سنة كانت كافية لاختراق نفق يصل الشرق بالغرب ، الا انها ما نزار لم تكن كافية لاختراق ميليمتر واحد داخل او خارج جلد المرأة . نهود ومرايا وامشاط ... وامشاط ونهود ومرايا ... كان المهر هو العمود الفقري للبشرية بأسرها .

ان الشاعر حر في ان يكتب ما يشاء ولمن يشاء . والقارئ ايضا حر في ان يحكم بما يشاء . ولاننا قراء ، مع الحرية والكرامة ، نرفع مع نزار - المحاضر - شعار الكلمة الزهرة ، الكلمة السيف . ولكن للدفاع عن الحرية والكرامة ، لا للدفاع عن خزافة امرأة او تسريحة مراقة . ثم - بصراحة - ماذا يهم الجلياع والعمراة والمضطهدين والمشردين ، في آسيا او فريقيا ، في الهند او في السند ، اذا ما نسي نزار معطفه او جريدته عند حبيبته ، او اذا قصت حبيبته شعرها او غيرت كنزتها ؟ منذ خمسة عشر عاما ولا عمل لنزار في حقل الشعر العربي سوى التوايح والشكوى من تصرفات حبيبته ، لانها قصت شعرها او غيرت فستانها . ليرح نفسه ويرحنا دفعة واحدة . ويرفع القضية الى مجلس الامن .

محمد الماغوط

غيظهم ويتمنون لو انهم لم يعرفوه من قبل . لانه يقف ، شاه ام ابي ، على الضفة الاخرى من النهر . هناك ، في الصالونات وحول المدافئ ، بعيدا عنهم بعد المشط عن السكين ، والقميص المنشي عن القميص المبقع بالدم . يقف عنادا او مكابرة او عجزا - ضد الجلياع والمطاش والمحتضرين والمنفيين ، في الاماكن الاكثر ازدحاما في هذه الاصقاع المشينة ، والتي تجعل من حلة «الاتوغرافات» شيئا مفرزا وضد الانسانية . تلك الامكنة التي لن يبلغها نزار قباني وجحافل المعطرة ، على جسر من الامشاط واقلام الحرمة ، لان الطريق الى الحرية لا يجتازه الا الحفاة .

نعم ، سنكف عن قراءة نزار قباني ، ما دام يقف على الضفة الاخرى من النهر . يتفرج على الحرية وهي تفرق دون ان يرتعش له دفترا او اصبع . وسبطل متفرجا حتى الشيخوخة ، ما دام ينحشى البلبل . ما دام يفتقر الى عنصر الذعر والاشمئزاز والرغبة في الخوض الى ما فوق الركبتيين في كل ما تأنف منه الفئة القارئة لشعره والقارضة لكتبه واوراقه . واذا كان اقبال هذه الفئة على شعره يبعث في نفسه الاطمئنان ، فنحن ، عبيد الكلمات الحرة ، لا يبعث في نفوسنا الا القلق . لان الشاعر الذي نحب ونجل ، هو الشاعر المرفوض (فعلا) ، الشاعر الاهوج والغريب والمتسكع

«العصفور الاحدب» وعصر الملفات

«العصفور الاحدب» ، بقلم محمد الماغوط . بيروت ، كتاب حوار ٢ ، ١٩٦٧

بالسرح : ان اختصاصي الوحيد هو الحرية . ويتابع محمد الماغوط حديثه عن مسرحيته فيقول :

« عندما بدأت بكتابة هذه المسرحية ، لم اكن اعرف اي شيء عن السرح ، لا قراءة ولا مشاهدة . وانما شرعت بكتابتها كقصيدة طويلة . ولكن ما ان تجاوزت اولى صفحاتها حتى شعرت بان ثمة اصواتا اخرى تراحم صوتي ، تريد هي بدورها ان تصرخ وتتهم وتدافع وتبكي . وسطراً بعد آخر اقلت الزمام من يدي ، وراح صوتي

« قد تكون هذه المسرحية فصلا لكل عرى الصداقة المعقودة بين السرح العربي وجهه . فانا لا اكتب لنظارة تضحك او تبكي بعدوى من الصفوف الامامية . وقد تسلط هذه المسرحية من الاضواء على ما حولنا من عنف وقسوة ووحل ودماء ، اكثر مما تسلط على ما حولنا من فنادق فخمة وحدائق غناء . فهي ليست مسرحية «سياحية» . وقد تكون ، جلة وتقصيلا ، خليطا من كل شيء . الا مما يتكون منه السرح » كما هو معروف ومتفق عليه . فهذا لا يعني اطلاقا . فانا لست مختصا

(بكل ما فيه من ثقة وإثنية) ينكمش على نفسه ،
يتراجع امام الاصوات الاخرى - احتراماً لها ،
لا خوفاً منها ؛ يتراجع ويتراجع حتى كاد يلتصق
بحدار التجربة . ولكنه لم يتلاش ولم يتوار . بل
ظل شاهداً نزيهاً (كما افهم النزاهة) في حكمة
ارضها من الوحل وسقفها من النجوم . ولضرورة
التحكم بهذه المسافة الشاسعة بين هذين النقيضين
فقدت عزيمة الصبر على توضيح الارشادات المسرحية
ورسم حركات الشخوص . لاني اعتبر ايا من تلك
الارشادات نشازاً في مزمار الشعر ، الذي كلفت
طوال حياتي لبيعي صافيا لا يعكره شيء .

والآن ، ما هي تلك الاصوات التي زاحمت
صوت الشاعر ، وارغته على كتابة مسرحية طويلة
بدلاً من قصيدة طويلة ؟ في الفصل الاول نلتقي
بمعظمها . انها خليط من اصوات الريح والشرطة
والضطهدين والاطفال والعصافير ، اجتمعوا بفعل
ظروف معينة في قفص بشري في الصحراء ، حيث
لا عمل لهم اثناء الليل اطراف النهار سوى الزحف
باطرافهم المخطمة على ارض يحبونها وتكرهمهم ،
وتجاذب اطراف الحديث بتلك الكلمات المنمقة .
كل منهم يخفي حقيقته وراء جراحه وكلماته ، حتى
يحار قارئ المسرحية وهو يبحث عن حقيقة التهم
النسوبة اليهم . وكان اكثرهم احساساً بهذه الحقيقة
واشدهم رغبة الى توضيح او تعهد ما بان يكون
اكثرهم لباقة وطيبة ، قزم ريفي . وعندما تفتح
ابواب القفص امام الجميع ، يتقلب الجميع رأساً
على عقب لدرجة اننا ننكرهم ، ويصعب علينا
التعرف اليهم ، او بالاحرى تنكشف حقيقتهم بفعل
الحرية . كلهم يتغيرون . يعودون الى جلودهم
القديمة المربعة ، ما عدا القزم (الريفي الماثل عن
العمل) فهو لم يتغير ابداً ، بل اصبح مدهوشاً
ومنسحقاً لان من عرفهم قد تغيروا . ولذلك راح
بدافع من اليأس والغدر الذي حاصره به اصدقاؤه
« يدخل مقامي المدينة كالقرصان ويصرخ : من
يشترى حقلاً بعيداً ببلغافه ؟ » ثم اخذ « لا
يضرب السيارات الجديدة بالحجارة ، ويشترك في
المظاهرات ، فحسب ، بل يقرع ابواب البيوت ليلا
كالجنون حتى اذا ما خرج اصحابها يسألونه ماذا
يريد ينتحب امامهم ويقول : اريد ان انا . »

ولكن من اين يأتيها هذا القزم ، هذا الثائر
المجهول المخطم ، من اي ريف ومن اي صقع ؟ انه
من قرية صحراوية بائسة ينقطع عنها المطر وتجف
فيها الضروع ويتكاثف الغبار ، ويتراكم الفقر
لدرجة فقد سكانها صبرهم على متابعة الحياة اذا
لم تنقذهم الحكومة . وينتظر شيوخ واطفال ونساء
تلك القرية تحت الشمس اللافتحة ، امام عثباتهم ،
« المندوب الزراعي » ، منفئين عن غضبهم بتقريع
بعضهم بعضاً : الزوج ضد الزوجة ، والام ضد
الطفل ، والطفل ضد الجميع . لا تحو قلوبهم من
الحنان ، بل يتخلو العالم من الرحمة .

ويطول انتظارهم للمندوب الزراعي . ويستهلكون
هذا الوقت الطويل باعداد لا تحصى شبيهة طويلة
بطالبهم . انا سأقول كذا ، وانت ستقول كذا .
انت تجلس هنا ، وانت تجلسين هناك . ولكنهم في
اللحظة الحاسمة لا يقولون شيئاً . لان الحكومة
بدلاً من ان تبعث اليهم مندوباً زراعياً ارسلت لهم
مندوباً صناعياً . قفز من سيارته الى الارض ، ومن
الارض الى المصطبة ، القى من عليها خطبة لم
يفقهوا منها شيئاً ، ثم امتطى سيارته التي نفثت في
وجوه الفلاحين سحابة من الغبار . وبهذه الحركة
الآلية اثبت ان زمنه ومفاهيمه تختلف عن زمن
ومفاهيم من كانوا بانتظاره . ويحين جنون اهل
القرية . ويصبون جام غضبهم على عجوز خرف
(كان شيئاً آخر فيما مضى) ، يسرق حلوى
الاطفال ويلتهمها في الخرائب . الجميع يقفون ضده ،
حتى احفاده ، لا احد معه على الاطلاق سوى
طائر ضرير احذب ، كلما سمع احد بسوء يصرخ
من على شجرته الجرداء . وعندما تتكاثر الغيوم
في وجه هذا العجوز ، ويتأكد من ان الايام الماضية
لا يمكن ان تعود ، وان الحصب قد ولى ، كما تولى
صرخات صديقه الطائر ، ينتحر . فيخيم الصمت
على الجميع ، ويتوارى جميع اهل القرية في اوكارهم ،
ولا تبقى الا جثة هذا العجوز مسطحة ودامية امام
الفقر والخراب ، بعد ان ولت الايام الجميلة وولى
الطائر معها .

ان الفصل الاول ما هو في الحقيقة غير زناد
يوتر الحوار والغموض والكلام المشبه ، ليطلق
شخوص المسرحية كلا الى مكانه في الفصول التالية .

الموضوع قرب ابريق الماء (مشيراً الى الملف) هو حياتي او حياة مسمار صغير في حانوتي .

ان صانع الاحذية هو رمز الانسان الذي يرفض ان تختصر حياته بهذا الاسلوب الشنيع . ان جسده بكل ما فيه من دم وقوة لم يستطع ان يلخص حياته . لقد فقد طفولته امام شبابه ، وها هو يفقد شبابه امام كهولته ، فكيف يستطيع الايمان بان ذلك الملف يحتوي على حياته كلها ؟ وعندما يرغم على مثل هذا الايمان وتشتد وطأة الخناق عليه في عالم الملفات يصرخ ملء صدره : اريد مطراً ... اريد مطراً . المطر في السماء ولكن كل شيء جاف على سطح الارض . المطر هنا ايضا رمز عظيم له الف هوية وهوية . وشعور الكاتب بالخطر الذي يهدد الكرامة الانسانية ، وفقدان الشجاعة على رد الاعتبار اليها ، خطان متوازيان يدفع الكاتب بشخصه فوقها حتى ولو الى الموت بحثاً عن تلك الكرامة ، عن بقاياها ، ولزورها من جديد في ملايين الصدور الفارغة منها . ولكن اين هي ؟ اين تبخرت ؟

ان مسرحية « المصفور الاحدب » تجيبنا ، بالوضوح الصارم والرمز العظيم ، بان ثمة قوى لا انسانية تسلب الفرد انسانيته وطأنته ومستقبله لانها خائفة وبلا مستقبل . وحتى لا يكون لها مثل هذا الشيء في المستقبل ، فان هذه المسرحية لا تضع القارئ امام احد امرين (مع الضحية مع الجلاد) فحسب ، بل تصر على ان يرتفع عن مستوى الضحية او يهبط عن مستوى الجلاد .

سنيه صالح

ولذلك فان كثيراً من الناذج التي لم تكن تعني للقارئ شيئاً يذكر في الفصل الاول ، تلعب دور الصدارة فيها بعد . ومن هذه الناذج الفريدة صانع احذية بسيط ، كسمار ، كقطعة جلد . الا انه ببساطته هذه يربك عدالة بأسرها : يخرج من السجن لا ليطلب باحذية او بسمامير بل ليطلب وهو يرفع يديه الى السماء « بالحب والمطر » ، في زمن تخترقه السامير وتغمره المياه القذرة وكل ما من شأنه ان يجعل من كلمة حب او مطر امراً مثيراً للدهشة . والغريب ان صانع الاحذية هذا ، مع كونه عاش وترعرع مكباً على الاحذية ومحتضناً اياها ، يرفض ان يقترب اكثر مما ينبغي من حذاء ما عندما يكون الامر خارج نطاق عمله ، وفيه مساس اكيد بكرامته .

ان الحاجب في هذا الفصل المعجيب من المسرحية يلعب دوراً فريداً لم نألفه في اية ملهة من قبل . ان المؤلف يربط ، وبأسلوب نضاح بالدم والرعب العميق ، التهم بالقاضي والقاضي بالحاجب والحاجب بالامير والامير بالشعب والشعب بالقاضي ، ثم القاضي بالتهم والتهم بالحاجب ، وهكذا الى ما لا نهاية . وكل ذلك بمجوار يمزق ذلك القناع التاريخي عن عدالة الملفات او ملفات العدالات .

« التهم : اعرف يا سيدي ان ملفي كبير كبير ، وان عدالتكم ، بل وكل عدالة في العالم ، تحتفي وتبرز كمغالبل القط ساعة تشاء . ولكن ما اعرفه ايضا انه منها تكن تلك المغالبل صلبو حادة فانها مقوسة ، ولذلك من المستحيل ان تسير بشكل مستقيم . ثم لا اظن ، من جهة اخرى ، ان هذا الشيء الصغير

وجه جبران الحقيقي

« اعضاء جديدة على جبران » ، بقلم توفيق صايغ . بيروت ، كتاب حوار ١ ، ١٩٦٦

لا قارئ سطوري انا .

غلاف الكتاب وقاره دسم ، وعلى صفحته الخلفية اقوال فيه لم تستوقفني ، لانها ليست لي . وانا لا اناقض نفسي هنا - اذ انني احب ان احتفظ بصورتي انا عن الكتاب ، ولقد شعرت بانه كتب لي ، ولي وحدي .

ما ازال اعتقد بان في مراجعة كتاب ، اي كتاب ، نوعاً من التطفل المتسكع الذي تضيق فيه ، او تكاد لا تكون ، زهوة الخلق . فالكتاب يُقرأ او لا يُقرأ ، على اعتبار اننا نقرأ احياناً وكأننا لا نقرأ شيئاً . ولذلك احب ان اخاطب هنا قارئ كتاب توفيق صايغ « اعضاء جديدة على جبران »

وعفوية . واعتقد ان هذه الرسائل والمذكرات اعطت جبران طابع الخلود الصحيح - اذ جعلته قريبا ، حقيقيا ، لا تتمتع تفاصيل حياته بالنسبة لنا بعلامات سؤال ، ابتدعت لها في الماضي اجوبة في اكثرها عجز وتحيلات مراعاة .

بلى ، يقول توفيق صايغ ان جبران انسان كبير . ويترك للماري هاسكل ان نتحدثنا عن ذوقه ، عن عصبيته ، عن فقره ، عن اتكاليته ، عن غروره ، عن تصوراته ، عن تناقضاته في الحب ، في الصداقة ، في النقد .

كانت علاقة جبران بالنساء ، ومنهن ماري هاسكل ، حكايا معقدة اقبحها المفسرون الحائرون في عوالم الاساطير . ومثل هذه الاساطير لا يمكن ان تظل اساطير . ولعل في هذه الرسائل والمذكرات وحدها اسطورة حب جبران ، هذا الحب الذي كان له ارضه وسماؤه وضبابه ومستنقعاته .

الادب الشخصي يدر بنا على الشجاعة ، قبل ان يشبع فضولنا . فهو يساعدنا على كبح جماح تخيلات نتصور بها الاديب انسانا متفوقا ولكنه غير مكتمل الصورة . وفي حميميات الاديب هذه ، الاضواء الصحيحة على تفوقه وعبقريته . والعبقرية لها مآسيها ولها سخفها ولها جبنها ولها قلقها ولها اطباعها الكثيرة .

وفي هذه الرسائل والمذكرات كل من هذه الظلال التي لازمت جبران في مواقفه الحمية ، وخاصة في علاقته مع ماري هاسكل - هذه المرأة التي تخاضعت حولها النعوت والادواف ، ولكنها تبقى اكثر الناس تقربا اليه وآمنهم على حفظ آثاره . ومن ودعتها حمل الينا توفيق صايغ صورا للوحات جبرانية ورسائل لها ولجبران تزود الكتاب بحبوبة اخرى .

هذا كتاب جديد . والجديد فيه ان سطوره لم يلجما اعتماد سابق لان تنشر في كتاب . كان فيها جبران بين يدي كلمة اسرار ، تصفي اليه بثقة وهو يتحدث بعفوية التكم - لا الخطيب ولا المحاضر ولا الكاتب . كان جبران مغرورا يختال امامها ، هذه الوفية ، اختيالا دونكيشوتيا . يتحدث عن نبل اصله وعراقته وعن جهاده السياسي ضد الاتراك وقد توج برصاصة ادمت ذراعه فنجبا من

ولعل اصفى ما يعطيه حامل الادب لقائه اعترافه الهامس او غير الهامس بوجوده . في القراءة ارضاء غرور ، كما في الخلق ايضا ارضاء غرور آخر . توفيق صايغ قال لي في توطئة الكتاب بانه ليس باحثا بطبيعته وبانه ليس جبرانيا . اعتراف طريف ، قد يكون من ذوافعه نوع من التهرب من صفات يرفضها ليظل توفيق صايغ الشاعر . وكتابه الجديد هذا كان استدراكا جريئا . فالشاعر اقرب الناس الى الحقيقة ، واكثر الناس فضولا ، واكثرهم شعورا بامانة الخلود ، وبعمودية التخليد التي هي خلق شعري جديد .

بلى ، لتوفيق صايغ في كتابه هذا موقف الشاعر ، لانه اراد بروحيته الشعرية ان يكون معمدا جديدا لجبران ، محاولا ان يقول لي بان ما دفعه الى وضع هذا الكتاب هو حاجتنا الى الادب الشخصي .

كتاب توفيق صايغ ان اعتبرته رثاء لجبران كان رثاء جديدا . وان اعتبرته تخليدا كان تخليدا جديدا . وان اعتبرته تاريخا كان تاريخا جديدا . وان اعتبرته رجعات فضول كان هذا الفضول جديدا ، صحيحا .

وبعد ، فان الناطقين فيه هما جبران وماري هاسكل . وابن ينطق توفيق صايغ ؟ أي سطور التوطئة المتعلمة بين التواضع والدهث والسرد العلمي النصف ؟ كلا . هو مع سطور الكتاب كلها ، وله من الكتاب شعوري بانه كان ممي ايضا في لقاء مذهل مع هذا الكشف الجديد . اذ لولاه لما بعث حديث ماري هاسكل وجبران .

تري ، هل تخون السيرة الادب الشخصي ؟ بلى ، هي نخونها عندما تقطع صلتها بالحياة لتستقر بخزائن المتاحف ، فتغدو مرجعا يخطب ارقام السنين وعناوين الاحداث الراحلة . والادب الشخصي ادب مظلوم ما دام لا يقف جنبا الى جنب مع الادب الآخر ، وكان ما يخطه الاديب في الساعات الحمية هو غريب عما يخطه للمطابع .

ليس جبران مغمورا وحظه من الشهرة لا يمد ، حتى غدا في خيلة الكثيرين الها او نيبا . ثار الكثيرون على النعمية لانه خلد به بلا هالة . وقد يشور الكثيرون على توفيق صايغ لانه انطقه بطبيعة

وكان جبران (يقول) يمر في حالات صوفية تجمعهم رؤاها بالمسح . وكان جبران يحب الجنس ولا يحبه . وكان جبران بخيلا وكريما . وكان جبران يحلم بامبراطورية عربية ويريد العمل على اقامتها ، ثم يقول لما ري ان اللبنانيين يختلفون عن السوريين اختلاف الامريكيين عن المكسيكيين !

اما رأيه في الادباء والفنانين ففيه الكثير من العفوية الطيبة . قال لما ري مرة وما في احد مطاعم نيويورك سنة ١٩١٣ : « كم اكره ذلك الرجل . لقد افتزع للكلمات من رأسي وقطف الثمار من الشجرة التي كنت ادنو اليها . غير انه هو متقدم على عصره ثلاثمائة سنة ، وانا ساصنع شجرة واقطف ثمارها لستائة سنة للامام » . ذلك الرجل هو الفيلسوف نيتشه ! ويقول لما ري ايضا انه قد رأى في احلامه جميع الرجال العظام تقريبا ، ثم يستدرك قائلا : « ان الاحلام خفيفة لكنها ليست مؤثرة كما هي احلامي عن المسح » .

ويقول لما ري سنة ١٩١٦ : « ان امام الفنان طريقين لا اكثر للعيش حسبها : اما ان ينتج نتاجا جيدا ويحيا حياة كلاب ، او ان يكون معلنا (عن نفسه) ويلحق ما يسبح من امكانيات اجتماعية ويكون مسليا وموانسا . وكل من الطريقين خطأ . وانا ليس بوسعي ان افعل هذا او ذاك - فلست مهيا لذلك » .

وتقرأ ، ثم تحفظ ، ماري هاسكل آراءه في هذا وذاك من الفنانين والادباء . وفي آرائه تلك كثير من عفو الخاطر الذي لا يغلو من التسرع . وتقصي اليه (١٩١٥) : « تعرفين يا ماري اي هناء كان يجيشني عندما كنت اسمع الناس يتدحون نتاجي - اما الآن فان المديح يجزني حزنا غريبا لان المديح يذكرني بشيء لم اقم بعملها بعد . واحيانا اشعر انني غبي ووحيد - اني اريد ان احب للاشياء التي لم اقم بعملها بعد » . ويقول لها (١٩١٦) : « انا لست مفكرا . انا خالق اشكال » . ويذكر لها اميتها وطموحه في عمله (١٩٢٢) : « ان انا استطعت ان افتخ لانسان ما ذارية جديدة في قلبه هو فاني لا اكون قد عشت عبثا » . ويسمي الاثر الفني (سنة ١٩٢٤)

« علاقة حب بين الفنان والقارى » .

وأقف هنا ، لان العرض تطفل متسكع ومسح مدح .

في هذا الكتاب اجوبة كثيرة عن اسئلة حول جبران تختلف باختلاف القارئ واغراضه . وانا ، المرأة ، ايقظني وطوقني جواب لسؤال لجوج طالما الح علي طويلا ، وهو : هل احب جبران ماري ؟ اقول انا ، بعد رفقتي لهذه الرسائل ، انه لم يحبها ذلك الحب الذي تحبه المرأة . اعطاها اشياء كثيرة ، اهمها عرفان الجميل . كانت له الجوهرة لا الوردية . وعاشت علاقتها حياة رائعة - ينقصها ذلك الشيء الذي لا اعرف ماذا اسمه ...

ماري هاسكل امرأة فشلت . ولكنها امرأة عظيمة قوية ، لانها اخسبت هذا الفشل وصبرا . كانت تدفعه دفعا للكتابة ، للتعبير ، وآرائه ، لتأكيد وجوده معها ومع الآخرين . في تقربها والتصاقها به الى مستوى القداسة . ولكنها لم تكن الحبيبة . ولم تكن مريم .

في هذه الرسائل والذكرات تقابل ما البطولة مع جبران . كانت عظيمة جبران . لي ان في تسامياها تسابقا منتصرا مع حر الصامته الدفينة .

بعد هذا الكتاب لم تعد ماري هاسكل جبرانيا . ان صورتها في الكتاب اكثر من واقع وعلاقتها بجبران فيه واضحة على قدر ما يحتاج احدي الانثوي .

والآن حان الوقت لأكرر ما قاله توفيق صايغ في كلمته التمهيدي ، بانه ليس باحثا وليس جبرانيا . والتكرار مل . لكنه يضعف احيانا من معنى القول - وهذا هو قصدي .

بلى ، انه باحث وجبراني - بمعنى جديد ومجمل جديدة اعطت لجبران حقا جديدا في البقاء والحواد . لقد روض توفيق صايغ حدة الخلاف بين اللغتين العربية والانكليزية ، فكان ، في ثقته (حيث نقل من الرسائل والذكرات) ، الشاعر المعنة . وبعد ، هل تلي مراجعة الكتاب ؟ لا . انها تطفل قاصر ، لا ينضجه سوى الكتاب نفسه .